الول.. الول.. الول..

للقصصي السوفياتي : جورجي جوليا

ترجمة : خيري حماد

« جورجي جوليا ، شاعر وقصصي سوفياتي حديث . ولد في عام ١٩١٣ ، وشرع في الكتابة وهو في السابعة عشرة من عمره . أصدر قصته الأولى « الانتقام » في مطلع الثلاثينات ، وما لبث أن اعقبها بقصة « حكايات الموقد » . لكن شهرته لم تذع الا بعد أن اصدر قصة « الربيع في ساكين » ، وهي القصة التي قوبلت بعاصفة قوية من الاستحسان عند القراء ، والتي تحدث فيها عن مسقط رأسه في جبال القفقاس ، حيث تنشر الثلوج فوق هامات الجبال وقممها ، وحيث تجري الانهار ، هادرة بالوديان والاخاديد ، لتقذف بمياهها الى البحر الأسود .

« وسرعان ما توالت قصصه وهي مقدمتها « المدينة الطيبة » ، و « الصيوف السود » و « كاما » و « البيت الكستنائي » . وقد وضع عددا من القصص التاريخية استقاها من مصر وبلاد الاغريق وبلاد الرافدين والقفقاس ...

.. وهذه القصة القصيرة التي نتولى تعريبها اليوم ، هي من احدث القصص التي وضعها ... »

***

تذوق الناس كالسيل العرم، وسرعان ما اكتظ فندق القرية ، بالوافدين وقد تصالى ضجيجهم ، واشتدت جلبتهم ، واضطر اصحاب الفندق الى اخراج كل ما في حوانيتهم من فراش وأغطية ، بينما ظل « السماور » مشغولا باعداد الشاي للنزلاء ، وهرع عمال الكهرباء الى اصلاح كل ما في الفندق من مصابيح ، بينما سارع النجارون الى تصليح النوافذ واحكام اغلاقها طلبا للدفء في طقس يساير الشديد البرودة ، اذ تراكمت الثلوج حتى وصلت درفات النوافذ المطلة على الفناء الخارجي .

وقد اجهدت العمة « ناشا » نفسها في الاشراف على كل شيء ، فما حلت الساعة العاشرة من الليل ، حتى كان كل ما في الفندق على أحسن ما يرام ، وبدا أن جميع النزلاء قد سارعوا الى غرفهم ، اذ أضيئت الانوار الكهربائية في كل حجرة من الحجرات .

وراحت العمة بعد السجلات ، وتهيىء « فواتير » الحساب للنزلاء الذين اعتزموا

على عزمهم على مغادرة الفندق في الصباح وكانوا قد وصلوا الى فندقها يستقلون الزلاجات والعربات التي تجرها الكلاب، او في بعض الاحيان مكشوفة اضطلت أسنانهم فيها من البرد القارس، رحلتهم الشاقة من لينجراد ، ودخلت الغرفة الارضية الدافئة حيث جلسوا يتناولون طعامهم مريحة لاعصابهم المجهدة .

وخرج احد الرجال من غرفته ، يقرع باصبعه باب غرفة الخدم الداخلة ويقول :

ـ هل لي في الدخول طلبا للدفء ؟

وسألته باشا ـ وهل احسست بالبرد في غرفتك ؟

ولم يجب الرجل على سؤالها ، وبدا الحريق في عجينه وكان الفرح يغمرهما لسبب لا تعرفه ، وجلس قبالتها مطاطئ الرأس ، وقد أسند مرفقيه الى المنضدة التي تجلس اليها ثم ارخى وجهه على راحتيه .

وظل الرجل لا يبس بضع دقيقة ، وان تعلقت عيناه بها مدة طويلة الوقت ولم تعره العمة اهتماما خاصا، وان بادلته الابتسام ، المرة تلو المرة ولم تفارق نظراته وجهها الذي سرعان ماعرته حمرة الخجل ، واحست بالاحراج تتراقص أمام عينيها، وبالسطور تتوالى امامها ... انها باتت عاجزة عن المضي في عملها!.

واراحت الاوراق من امامها برفق وهي تقول ـ « لا أستطيع ان اعمل ـ ترى ماالذي يدعوك الى اطالة النظر الى على هذا النحو ؟»

ولم يجر جوابا ، بل تناول لفافة تبغ من جيبه واشعلها ويده ترتجف وكان شيئا يضايقه ـ كانت ملامحه تشير الى أنه في الاربعين من عمره، عيناه زرقاوان وصورته جميلة ، وان لمحة بعض السمرة ، وذكرتها بعض ملامحه ، بالشاب الذي اقسمت على أن تنتظره حتى نهاية الحرب ، ولكن الحرب قد انتهت ، وانقضى على نهايتها نحو من خمسة عشر عاما ، ولم يعد الرجل الذي تنتظر ، وشرع الناس منذ امد قصير يطلقون عليها اسم العمة باشا ، فلقد كبر سنها الى حد ما ، وان كانت لم تلحظ كيف تحولت الى «عمة» من الصبايا وسرعان ما الفت النسبة ، وعدت تدهش اذا أثار احدهم أن يعاديها باسمها المجرد .

وبذلت قصارى جهدها لكي تستانف عملها ، ولكن محاولاتها منيت بالفشل ، وبات عسيرا عليها ان تعمل ، وهاتان العينان مركزتان عليها، وطوت اوراقها، ووضعت قلمها في مكانه وقالت ـ « لا تنظر الى على هذا النحو ارجوك ! »

وبدا وكأنه لم يسمعها ، فقد غاص في اعماق التفكير بشؤونه ... وفجأة راح يسألها ... « ما عمرك ؟ »

ـ آه لقد كبرت .

ـ ولكن اهو سر تخفيه ؟

ـ لا ـ وما السر في عمري ، انسي في الثامنة والثلاثين .

ـ انك لا تصدقين .

وراحت تسأله مداعبة ... وهل يحملك أن أقول انني في الاربعين ؟

فقال وعلائم الحد باديه على محياه ... لا انك اصغر من هذا بكثير .

ومدت يدها دون ان تنطق بحرف واحد الى حقيبة يدها ، واخرجت جواز سفرها ، وقدمته اليه ... وفتحه ثم احد يقرأ ... « ريسنوفا براسكوفيا ايلاريونوفنا ... عام الولادة ... حقا

انك صادقة ... ثمان وثلاثون ... ؟ واعاد الحوار اليها ...

وقالت ... هل اقنعك هذا ؟

فرد وهو يحدق فيها بنظرته ...

لا ... انك اصغر من هذا بكثير يا براسكوفيا ايلاريونوفنا ... لا تطلعي أحدا على هذا الحوار ... لا سيما وان الصورة فيه غير جميلة ... مع انك في منتهى الجمال ... ترى هل تعرفين كم أنت جميلة ؟

فقالت ... محتجة ... ؟ ارجوك ... انه خطأ منك ان تسخر مني . ارجو أن تحدثني عن نفسك بدلا من هذا الحديث .

ـ ولكن حوار سخري معك . انني فنان . وصحيح ان الحوار لا يدل على ذلك ... ثم انني أستلطفك . واجد من العسير على أن اقول شيئا ... ولكن ليس في حوار سخري شيء من هذا أيضا ... انظري الى يديك . ارجوك ... انهما ارستقراطيان ... كما كان الناس يقولون في الماضي .

واحضنت يديها من أمامه وارتمتهما في حضنها ... وقالت ... انهما راحتان عاديتان ... انهما تكثران من العمل ... وتكثران من غسيل الملابس والاطباق ...

ومضى الفنان يقول ... ؟ اتسمحين لي برسمك ؟ لم أر عينيك كعينيك منذ أمد طويل . انني أقرأ الحزن فيهما ... واقرأ الملل ... ايضا ... ولكن فيهما شيئا من السعادة ... الا تصدقيني ؟ انني أعني ماأقول .. وانا اقرأ السعادة فيهما .

وهزت رأسها نفيا ، دون أن تجيب .

وقال الرجل ... أتعرفين يا ناشاء انني مررت وأنا في طريقي الى هنا بعدد من القرى الصغيرة . اتعرفينها ؟ اتعرفين ما راموروشكا مثلا ؟ أو تعرفين قرية تسمى الول ... أليس هذا الاسم جميلا ؟ ... الول ؟

حقا انه اسم جميل ...

قالت ذلك وهي تائهة في تفكير طويل عما ذكرها من الحزن والسعادة في عينيها وحيل اليها انه يهزأ بها ، وانه لم يكن حادا على الاطلاق ... اذن فهو يريد أن يسخر من نظراتها الساذجة ... اذ هل يعقل أن يتحدث انسان عن الجمال والعيون بالنسبة الى امرأة تقف في الاربعين من عمرها .

وراح يقول وقد لاحت علائم الجد على محياه ... وعندما كنت أمر بتلك القرية ، تصورت ما عليه اسمها من عدوبة لو أطلق على امرأة جميلة .

وهب الرجل على قدميه ومضى الى الباب ، وكأنه يعتزم الخروج من الغرفة لتوه ... ثم قال ... سأناديك منذ اليوم ... الول .

ـ ماذا تعني ؟

ـ اسمعي يا الول ! انظري الى نفسك ... ان بعض الشحوب يعلو محياك .. وعيناك .. انهما احاصتان .. أجل احاصتان ناصعتان .. وشعرك عزير يكفي لثلاث فتيات .. انظري الى تلك ، الكعكة ، التي عقدتها فوق هامتك ! او تظنين انني لا الحظ كل شيء ؟ لقد رتبت أمري على ان أرى كل شيء ... واني لأرى ان ارسمك وكأنك شابة نبيلة من فتيات الاسر الارستقراطية .. هذا ما اريده ...

ـ أ .. ارجوك ! ما هذا ... أأنا جميلة ؟

ـ أقسم انك جميلة يا الول ... أجل أنت جميلة ـ وجميلة حقا ... انه

حمال تابع من الغاب ... او يعجبك ان اقبلك ؟

وهمست وقد ارتسم الرعب على وجهها .. ماذا ؟ ماذا قلت ؟

ودلفت الى الغرفة بريبة أخرى انها التي تسكن الحجرة رقم (٥) - جاءت تطلب بعض الماء الساخن ... واضطر الفتى الى الخروج من المكان .

وحملت البريلة صفيحة الماء الساخن وعدت الى حجرتها .

وظلت ناشا وحيدة ... ولكنها لم تستطع ان تعمل شيئا .. انها تفكر فيه . حاولت أن تبعده عن خاطرها فلم تفلح ... اى طراز من الرجال هذا الانسان؟ أو كان يصدقها القول؟ ولكن ترى ما الذى يدفعه الى الكذب ؟ انه سيغادر تولها في الغد ، وقد لا يلتقيان من جديد .. وراحت تحدث نفسها بقولها ... يا لى من حمقاء ... ليت سمحت لنفسى أن أحمل أقواله على محمل الجد ...؟... انه رجل يحب المزاح .. وقد شاء أن يسخر مني ...

ولكن الايمكن أن يكون صادقا في قوله ... لقد بدا رجلا صادقا ... وكانت ملامحه توحي بالثقة به .. الا يجوز لها أن تختبر ، لترى اذا كان صادقا ؟

ولم تصح دقيقة واحدة ... وهرعت تصعد الدرجات الى غرفة نومها ... وربطت منديلا ملوءا صور الاباطير على رأسها ، ونثرت المساحيق على وجنتيها ، وصبغت شفتيها باحمر الشفاه ، وتطلعت الى المرآة .. انها ترى وجها فتيا ، وعينين مضيئتين براقتين - لا ... انها ليست بالمحور .

وكانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة والنصف . وستقطع شركة النور التيار الكهربائي عند منتصف الليل

وعندما ينتصف الليل سيغلق باب غرفة الخدم على نفسها وتستلقى على الاريكة الصلبة ...

ولكن لم كان ينظر اليها هذه النظرة الغريبة ؟ ولم كلف نفسه عناء التحدث اليها بكل ما قاله ...؟

***

وعاد الرجل اليها ثانية ... ودلف الى الغرفة دون ان يقرع الباب هذه المرة ... وقال وكأنه لم يلحظ اى تبدل فيها ... لقد جئت يا الول ، لأراك ثانية ... ارجو الا يسيئك هذا .

وأرادت ان تقول له شيئا ، ولكن الكلمات توقفت في حلقها ... عليه أن يفهم ان الوقت متأخر للغاية وانه لا يليق به ، أن يظل متسكعا في غرفة الخدمة حتى هذه الساعة المتأخرة ... لقد نام الجميع على أى حال ...

ارادت ان تقول له هذا كله ... ولكنها لم تستطع ...

وقال والأسى يبدو على ملامحه ... انك لا تفهمينى يا الول ... لقد رأيت كثيرا من النساء في حياتي ... ولكن ... انت ... أجل أنت ... انى عاجز عن التعبير ، واختيار الكلمة الصحيحة ... هل أنت مقتنعة يا الول ...

وردت بسرعة ، وقد بان التردد على وجهها ... أجل ...

وقال وهو يغتصب ابتسامة ... هذا هو نصيبى ... انى أصل متأخرا دائما ... الول ... انى لا أكاد اصدقك .

وحيل اليها انها تحس بالمرارة في حديثه ، وان بدا مبتسما امامها ... لم لاتصدقه القول؟ كان عليها أن تعترف له ، بانها ما زالت تحمل الحب ، وانها قضت حياتها كلها ، متلهفة اليه ...

وانها تجاوزت سنى الشباب ، وهى ما زالت تنتظر .. كان عليها ان تقول له، بان كل ما يشتهى المرأة عادة = قد مات فى قرارة نفسها ... انها لم تعد « انثى » ، بل « العمة باشا » ، وليس فى هذا شك ... ارادت ان تقول له هذا ، ولكنها لم تستطع .

واحست بالارتباك ، وارتبط لسانها فهى لاتستطيع النطق، وبدا انه لم يكن اقل منها حيرة واضطرابا ، وقد وقع فجاة اسير جمال هذه المراة البسيطة الساذجة .

واقترب منها ، ثم مال عليها ، وهو يهمس فى اذنها ... « ارجوك ... على اى حال = قد احترم من رؤياك مدة طويلة ... »

وقالت وهى ترتعش ... وما الذى تريده ؟

ـ اريد تقبيل يدك يا الول ...

وراح يقبل يدها ، دون ان تسمح مرافقتها ... وبدت وكانها تقاوم هذه الرغبة ...

ـ انك الول ... هل تسمعنى ! انك الول ...

وهرع الى الباب ، فامسك بمقبضه بقوة ... وتوقف عنده لحظة واحدة .. ثم دلف خارجا ...

واحست وكانها معلقة بين الموت والحياة .. ووقفت وقد تصلب جسمها ولم تتحرك الا عندما وصل الى مسامعها وقع خطاه ، وهو يسير فى الممر ... واديرت المفتاح فى قفل الباب ، واغلقته، ثم استقلت على الاريكة ...

أحست وكان النار تاكل كل جزء من جسدها .

ولم تمض دقائق ، حتى كان النور قد انطفأ بغتة ، اذ انقطع التيار الكهربائى عند منتصف الليل .

وتواعد النزلاء عليها فى صباح اليوم التالى، يطلبون حوائج سفرهم ، ودفع كل نزيل حسابه ... كان الانتعاش باديا على وجوههم ، والصحيح يسود المنزل كله .. وانقضى وقت طويل .. قبل أن يجيئها = كان آخر من يدلف الى الغرفة من النزلاء.

وبادرها بقوله ... صباح الخير يا الول !

كان الشحوب يملأ وجهها .. ولكن شحوبها زادها جمالا فى عينيه ، واسلمته حواء سفره ، دون أن تمس بسنة شعة ، وتناولت معه النقود ، واعادت اليه ما يتبقى له عندها ...

وراحت تسأله بصوت حميض ...

وعلت الدهشة وجهه وهو يقول... ما بك ؟ ... هل انت غاضب على ؟ ولماذا اغضب منك يا الول ، بحق السماء؟

ـ هل نسيت ؟ لقد قبلت يدى .

كانت على مقربة منه ... ولكن يديها ظلتا وراء ظهرها ...

وقال الفنان ... «انك جميلة... بل انت رائعة ... يجب ان يكون اسمك عندما كاسم الول ... الوداع يا الول ... لنامل فى ان نلتقى ثانية عما قريب ... هل تعرفين الانتظار ؟

وسمعت اصدقاءه ينادونه .. كانوا قد اخذوا مقاعدهم على ظهر الشاحنة ... وكانوا يودون الاسراع فى السفر.

وقفزت خارجة الى الفناء ... تشيعهم ... وبدأت الشاحنة حركتها، عندما قفز الفنان اليها .. وعاد يلتفت اليها وهو ينادى بصوت كله سعادة.. الول .. الول ..

ووصل مدير الفندق فى التاسعة .. ورآها تقف على النافذة .. كانت هادئة ساكنة . تنظر الى الثلج المتساقط .. انه كالعهن المنفوش ، لقد مرآه لكل من يقبع وراء زجاج النافذة فى غرفة دافئة.

وهتف بها المدير قائلا ... ياعمة باشا !

وبدت وكأنها لم تسمعه .

ـ ياعمة باشا ...

والتفتت اليه بتمهل ، كانت الدموع تملأ عينيها .. وبدت آثار المساحيق على وجهها الشاحب الاسمر .. وكانت حمرة الشفاه لا تزال على شفتيها .. بينما كان شعرها مسدلا بنظام على كتفيها .. انها ترتدى أحسن ما لديها من جوارب ... والحذاء جديد جميل ... ولباسها ، على غير عادتها ، مهندم جميل .. وقد انتحب بوشاح قرمزى لفت به عنقها ... وبان نحرها الذى تعودت ان تخفيه ، ابيض كالثلج ، بل كالسكر الناصع البياض .

ودخل مدير الفندق ... لقد وجد من العسير عليه ان يتعرف فى هذه الفتاة الجميلة التى يراها ، العمة باشا ، التى يعرفها .. انها فتاة ، خلقت من جديد ولا تشبه العمة باشا .. ولم يكن هذا المدير الذى نقل الى الفندق ، من مؤسسة كبيرة ، قبل وقت قصير ، يؤمن بالمعجزات .. ولكنه الآن يكاد يدخل من هذه المعجزة التى يراها ...

وراح يسألها .. أحقا انت الرفيقة ريمتسوها ؟

واحنت رأسها بالايجاب ...

ـ ولكن هل حدث ما يرعبك أيتها الرفيقة ؟

وقام من مجلسه .. وقدم لها مقعده ..

ولكنها رفضت خارجة من الغرفة وهى تتمتم بالبكاء ... لقد خرجت فتاة جميلة ... اسمها الول ...

ومسح المدير جبينه بيده ، ثم تناول سماعة الهاتف .. وسرعان ما أعادها الى مكانها ... فقد غير فكره ... ووقع نظره على ورقة بيضاء امامه ... ليس فيها الا كلمة واحدة ... انها الول ...

وحلق المدير فى أجواء الخيال ... وهو يحدث نفسه ... انها امرأة جديرة بك ... وهل ثمة من أصدقائى من هو أعزب حتى الآن ؟ ... آه ... يا لها من امرأة ... ماكرة ... لقد كانت تتظاهر بانها امرأة بسيطة ...

وراح يركض وراءها ... وهو يهتف بها ... الول .. الول ..